م2: الأنوار

تمهيد:

ينبغي الإشارة منذ البداية إلى أن الحديث عن مرحلة تاريخية معينة منفردة بخصائصها عاشتها قومية معية، لا يمكن أن يفهم إلا إذا ربطنا الأمر بمجموعة من الأحداث التي مهّدت لهذه المرحلة، ذلك أنه يستحيل أن يقرأ التاريخ دون ربط بين أحداثه، وعلى هذا الأساس لا يمكن فهم عصر الأنوار/التنوير الذي عاشته أوربا إلا بفهم ما عاشته من قبل هذا التاريخ من أحداث.

1ــ فضل عصر النهضة:

لا شك أن للنهضة الأثر الحاسم على أوربا عامة، لكن الأمر الأكثر خصوصية أن النهضة هي التي مهّدت الطريق لعصر الأنوار في أوربا، ولقد وصل الأمر ببعض المفكرين أن قالوا إن النهضة جزء من الأنوار فعرّفوها على أنها "عصر التنوير الأول"، حيث إنه انطلاقا من عصر النهضة "راحت أوربا تتفوق بشكل حاسم ولا مرجوع عنه على بقية النطاقات الحضارية الأخرى، وفي طليعتها المنافس التاريخي: النطاق الحضاري العربي الإسلامي...، راحت أوربا تقلع حضاريا لكي تخلّف وراءها الآخرين..."[1]، في اتجاه نحو تغيير جذري يمسّ أوربا وينعكس كذلك على العالم بأسره.

انطلاقا مما سبق، رأى بعض المفكرين أن عصر النهضة في حقيقة الأمر، يمثّل مرحلة انتقالية بين مرحلتين"[2]، أين حلقة وصل بين ما عاشته أوربا في القرون الوسطى وما ستعرفه في عصر الأنوار.

---

[1] : هشام صالح: مدخل إلى التنوير الأوربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2005، ص67.

[2] : المرجع نفسه، ص68.

لقد عرف عصر النهضة مجموعة من الأحداث الكبرى، التي دفعت هؤلاء المفكرين إلى نعت هذه المرحلة التي عاشتها أوربا في القرن 16 بالمرحلة الحاسمة، وعلى هذا الأساس وصفوها بالمرحلة الانتقالية، وأبرزها ثلاثة أحداث: "أول هذه الأحداث الجسام، الاكتشافات البحرية والجغرافية الكبرى التي قام بها الإسبان والبرتغاليون والتي أدّت إلى ازدهار الحياة الاقتصادية في أوربا. وثانيها تطوّر النزعة الإنسانية (Humanisme) وانتشارها في مختلف أنحاء أوربا بفضل اختراع آلة الطباعة. وثالثها الإصلاح الديني الذي كان الجميع ينتظرونه بفارغ الصبر من دون أن يعرفوا كيف سيحصل"[1]، وعلى هذا الأساس كان لهذه الأحداث الدور الحاسم فيما ستعرفه أوربا من تغييرات أخرى أكثر أهمية في عصر الأنوار.

2ــ عصر الأنوار/التنوير:

يرى الكثير من المفكرين أن عصر التنوير مرتبط بالقرن الثامن عشر، كما أن النهضة مرتبطة بالقرن السادس عشر. لكن هناك من يذهب نحو تحديد تاريخ محدد لبداية التنوير وتاريخ لنهاية هذه المرحلة التاريخية، وهو في الحقيقة ما لا يمكن أن يتحقق بسهولة، حيث يربط الكثيرين بداية عصر الأنوار بالربع الأخير من القرن السابع عشر ونهايته بالربع الأخير بالربع الأخير من القرن الثامن عشر.

أما بالنسبة لأصل مصطلح "التنوير"، فيبدوا أن المصطلح كان في البداية ديني المنشأ قبل أن يتعلمن على يد فلاسفة عصر العقل (عصر المنطق)، أي في القرن الثامن عشر بالذات. أما عن الذي ميّز هذا العصر، فيقول الباحث البلجيكي رولان مورتييه: "إن القرن الثامن عشر هو أول عصر في التاريخ يشعر بذاتيته، وكيانيته، ووحدته، كما يشعر بأنه

---

[1] : المرجع نفسه، ص69.

مكلّف بتأدية رسالة مهمة للبشرية هي: التنوير. إنه أول عصر يبلور لنفسه برنامج عمل واضح المعالم من خلال كتابات الفلاسفة ومعاركهم الفكرية"[1].

إن عصر التنوير بهذا المفهوم هو عصر تحرير العقل والفكر، والذي سار نحو تخليص البشرية في أوربا من هيمنة الفكر الديني. ولقد أجاب إيمانويل كانت عن سؤال: ما هو التنوير؟ بقوله: "إنه خروج الإنسان من مرحلة القصور العقلي وبلوغه سن الرشد، كما عرّف القصور العقلي على أنه التبعية للآخرين وعدم القدرة على التفكير الشخصي، ومن هنا جاءت صرخة التنوير بدعوة الإنسان إلى إعمال عقله. فإذا كان الفكر في العصور الوسطى يرتكز على اليقين اللاهوتي المطلق الذي لا يُناقش ولا يُمسّ، والذي تضمن صحّته، أو قل تفرضها فرضا عن طريق هيبتها العلوية النصوص التأسيسية للعقيدة المسيحية. وأما الآن فقد أصبح الفكر ينتظم، أو يرتكز، على أساس آخر هو العقل الفلسفي، ولا شيء غيره"[2]، في إشارة واضحة إلى أن الفلاسفة هم من سيقودون حركة التنوير وهم من سيدفعها نحو الأمام.

3ــ رواد عصر التنوير:

ينبغي التنبيه إلى أن رواد عصر التنوير قد سُبقوا بمجموعة من الفلاسفة والمفكرين الذين مهدوا الأرضية للتنوير عبر أفكارهم التي طرحوها ومؤلفاتهم التي ألفوها، ولقد لقبوا بـــ "فلاسفة عصر التنوير"، وأبرزهم: فرانسيس بيكون، توماس هوبز، رونيه ديكارت، باروخ سبينوزا، جون لوك...

---

[1] : المرجع نفسه، ص138.

[2] : المرجع نفسه، ص145.

أما بالنسبة لرواد عصر التنوير، فيمكن أن، فلقد برزت مجموعة من الأسماء[1] التي تصدّرت المشهد، حيث سعت إلى بناء صرح جديد من المعرفة في أوربا، بغية تحقيق عالم أفضل للعيش:

3ـ1ـ إسحاق نيوتن (1642ـ1727): كان نيوتن صاحب أول نص في عصر التنوير من خلال كتابه "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية" الذي قال فيه نيوتن أنه يمكن فهم العالم من خلال العلم، فأقام منهجه العلمي على أساس التجربة والاستنتاج.

3ـ2ـ مونتسكيو (1689ـ1757): درس مونتسكيو تاريخ السياسة فأسس لهذا العلم، وما اشتهر عنه أنه أول ما نطق بفصل السلطات (السلطة التنفيذية، السلطة التشريعية، السلطة القضائية)، ولقد رسّخ الحرية الفردية من خلال كتابه "روح القوانين".

3ـ3ـ فولتير (1694ـ1778): دعا فولتير إلى ترسيخ الحرية في المجتمع ورفع شعار التسامح الديني، وجعل من العقل سبيلا لتنظيم السلوك الأخلاقي، كما وجّه انتقادا إلى الفلاسفة لعدم تقديمهم حلولا جذرية لمشاكل المجتمع.

3ـ4ـ دفيد هيوم (1711ـ1776): قدّم هيوم رؤية إيجابية للطبيعة البشرية، حيث اعتقد أن المعرفة تأتي من التجربة، ولقد شكك في فائدة الدين، كما أعلى من منزلة العقل.

3ـ5ـ جان جاك روسو (1712ـ1778): استطاع روسو أن يمزج بين فكر جون لوك وهوبز، حيث أقرّ بالمساواة بين البشر في الحالة الطبيعية، ولقد دعا إلى ترسيخ نظام من القوانين وتأسيس حكومة قوية من أجل حماية الممتلكات، ولقد عمل على الدعوة إلى القضاء على الظلم والتفاوت في المجتمع وشجّع على نشر التعليم.

---

[1] : ينظر: مجموعة من المؤلفين: موسوعة عصر التنوير، ص4 ص5 ص6.

3ـــ6ـــ دينيس ديدرو (1713ـــ1784): دعا ديدرو إلى وضع حد للمعرفة التقليدية القائمة على الخرافة، وتعويضها بنظام جديد قائم على الاستقلالية الفردية والأساليب البديلة للبرهنة، ولقد حرر موسوعة متعددة الأجزاء أطلق عليها "إنجيل التنوير".

3ـــ7ـــ آدم سميث (1723ـــ1790): كان فيلسوفا واقتصاديا أسكتلانديا، رأى في الاقتصاد علما يتبع قوانين معينة وسماه "اليد الخفية"، ولقد دعا سميث إلى ترسيخ التجارة الحرة، وبهذا يعتبر مؤسس الاقتصاد اللبرالي.

3ـــ8ـــ إيمانويل كانت (1724ـــ1804): تحدى هيمنة التجربة العقلانية في فكر التنوير، حيث أقر أن هناك أشياء نفكر فيها دون أن نخضعها للتجربة مثل الزمان والمكان، ولهذا ركّز كانت على دراسة المفاهيم العامة، ولقد دعا إلى ترسيخ التسامح والتعاون كمثل عليا...

3ـــ9ـــ إدموند بيرك (1729ـــ1797): أيّد بيرك دور المؤسسات حين قال إن أية أمة تتجلى في مؤسساتها، كما اعتقد أن الحدس والخيال أدوات مهمة لفهم العالم مثل العقل تماما.

3ـــ10ـــ توماس باين (1737ـــ1809): ندد باين بالعبودية في كتابه "الفطرة السليمة"، حيث دعا إلى تمرد مستعمرات أمريكا على الحكم البريطاني، واعتقد بالمساواة وسعى إلى ترسيخ العدل.